يطل فيها الربيع وهي ديار لعشائر معادية لقبائل نجد والحرّ فيها شديد تبلغ درجة ميزان السنتيغراد الى الخمسين. وعليه فانّ تفقُّد هذه البادية لمن معضلات الامور لا يُدرك بعض مرامهِ الّا من احبَّ التهوُّر في الاخطار والتحكُّم في التهالك. والحقّ يُقال انّ هذه المخاطر احدقت بنا من كلّ جهة لا يسمح لي البريد بتعدادها

وكانت اقامتنا في هذه الصحارى الى اليوم العاشر من حزيران وعيشتنا كعيشة اهل البادية نقتات بالجراد ونشرب بدلًا عن صافي المياه لبانَ النوق. ولمّا لم نرَ فائدة في مواصلة السفر في تلك البلاد انثنينا راجعين الى ارمامين ثم الى الحصن ثم الى المزيريب وركبنا منها السكّة الحديدية فوصلنا الى الفيحاء فاسرعت الى رقم هذه السطور ضمّنتها لمةً يسيرة من اخبار سفرنا مع الرجاء الطيّب ان نفصّل لكم هذه الاخبار عند وصولنا الى طرفكم ودمتم

اقدم اثرٍ لبني غسّان او اخربة المُشتّى

للاب هنري لامنس اليسوعي

(تابع لما قبل)

٣

قد بقي علينا ان نثبت بادلّة راهنة وجود بني غسّان في البلقاء ونبيّن انّ تلك الانحاء ليس فقط كانت تدين لهم خاضعةً بل انّها كانت ايضًا مركزًا حلّوا به زمنًا فتركوا من بعدهم آثارًا لسكناهم. وتلك قضيّةٌ لا تخلو من بعض الصعوبة لانّ امراء غسّان جمعوا بين حياة البادية والحضر وهم مع ذلك لا يكفّون عن الغزو وشنّ الغارات

(نقول) يؤخذ من دواوين الشعراء الذين قصّدوا القصائد في مديح بني جفنة وانقطعوا الى خدمة ملوكهم لا سيّما النابغة وحسّان بن ثابت ان سكنى الغسّانيين كانت في الغالب انحاء جَولان لوقوع هذه البلاد بجوار دمشق وكانت الفيحاء وقتئذٍ دارَ ولايةٍ يسكنها عمّال ملوك الروم يلقّبون امراء البادية نيابةً عن سادتهم. وكان الغسّانيّون يجدون ايضًا في سكنى جَولان سببًا آخر حملهم على اختيارها دون سواها وهو انّ جولان كانت في وسط مملكة غسّان الممتدّة كما قلنا سابقًا من جهة الجنوب الى بحر القلزم ومن جهة الشمال الى ضفّة الفرات. وكانت

تدمر وضواحيها من جملة البلاد الشمالية المذعنة لاوامرهم. كما انَّ اقطار وادي اليرموك ووادي الاردنّ كانت تحت سلطانهم جنوباً (١. فهذه الدلائل تؤدي بنا الى حدود البلقاء الشمالية

وقد زاد الدوريّ المؤرّخ الشهير ايضاحاً فدعا بعض ملوك بني جفنة باسم ملك البلقاء وورد ايضاً في كتاب ترجمة بطرس الايبريّ (٢ انَّ مقاطعة مادبا كانت انضوت تحت لواء شيعة المنوفيزيتيين القائلين بطبيعة واحدة في المسيح ولعلَّ ذلك جرى بايعاز الغسانيين الذين كانوا من اقوى انصار هذه البدعة حتّى انَّ اسم الغسانيين كان مرادفاً للمنوفيزيتيين

هذا وانَّ سلطة بني غسّان كانت في البلقاء انفذ منها في سواها من البلاد المجاورة لدمشق كحوران وجولان وسبب ذلك انَّ هذه المقاطعة كانت قليلة المدن فلم يرضَ ملوك القسطنطينية ان يبيّنوا لهم في قراها عمّالاً من الروم فكان لذلك معظم الحلّ والعقد في يد امراء غسان يتردّدون الى نواحيها للنظر في شؤونها

ولنا ما عدا هذه الدلائل العمومية بيّناتٌ اخصّ واوضح وردت في تاريخ حمزة الاصبهانيّ وهو احد كتبة العرب الذين تتبّتوا الامور التي رووها في تآليفهم. وقد شهد لهُ في حسن تنقيره العلاّمة نولدك

فذكر حمزة في تاريخهِ عدّة بنايات لبني جفنة ووصف سوادهم الاعظم بالكلف في تشييد الابنية الجليلة. واذا مرَّ عليهِ اسم بعض ملوكهم ممّن لم يخلفوا بعدهم شيئاً من ذلك فلا يسهو الكاتب عن ان ينبّه الافكار على الامر كأنَّهُ يستغربهُ فيقول: «ولم يبنِ شيئاً» او «ولم يحدث شيئاً». وغاية ما دوّنهُ في تاريخهِ عن بني غسان تعداد القصور والاديرة والقنيّ وغير ذلك من المآثر التي شيّدوا اركانها

وان قال قائل انَّ في رواية حمزة لغلوًّا ظاهرًا وانَّ كثيرًا من هذه الابنية لم يُعرف لها اثر اجبنا انَّهُ ولو سُلّم بذلك لا بُدَّ من قبول شهادة حمزة كتقليد متواتر بين العرب يعزون بناء القصور وغيرها لبني غسّان فنقل هذا المؤرّخ تلك الرواية ودوّنها في كتابهِ في القرن العاشر للمسيح (٣

---

١) راجع مروج الذهب للمسعودي (٣: ٢٢١) ومعجم البلدان لياقوت (٢: ٩٢٦)

٢) راجع Raabe : *Petrus der Iberier*, 81-82

٣) ومن احبّ ان يطّلع في ذلك على بعض تفاصيل فعليهِ بمقالة كتبها الدكتور نولدك في

قصر طوبة (نقلاً عن صورة فوتغرافيَّة للدكتور ل. موسيل)

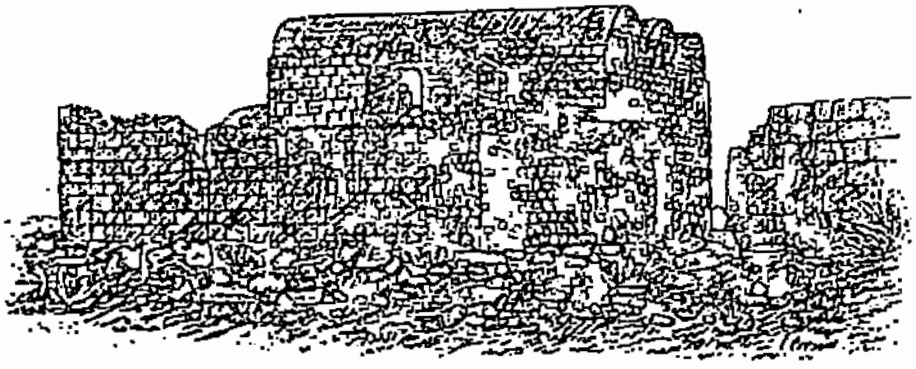

قصر عمرة (عنهُ)

فقال حمزة في معرض كلامه عن ثعلبة بن عمرو بن جفنة (ص ١١٧): «وبنى عقّة وصرّح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء» فيؤخذ من هذا الكلام انّ لبني غسّان آثارًا في جوار البلقاء وأننا لا نشطّ شططًا اذا ما بحثنا عن ابنية من اعمالهم في نفس هذه المقاطعة. ثمّ اردف حمزة قولهُ فكتب عن ثالث خلفاء ثعلبة وهو جبلة بن الحارث: «وبنى في ملكه القناطر وادرح والقسطل» فموقع «ادرح» المذكورة في قضاء معان بميلة الى شمال هذه المدينة (١ ولا تزال الى يومنا هذا اخربة قلعة تشبه هندستها قصر المشتّى فلها كالمشتّى سورها وبروجها المستديرة على هيئة نصف حلقة. ويليها كنيسة وجهتها نحو الشرق كبقية الكنائس الشرقيّة الّا انها خارجة عن السور وقد عاينها مؤخرًا الدكتور لويس موسيل تريل كليتنا فوصفها لنا وصفًا مدقّقًا

ونظنُّ ان القناطر التي ورد ذكرها في تاريخ حمزة انّما يُراد بها القُنَيطِرة وذلك هو رأي الدكتور موسيل الذي رآها في سفرهِ الاخير. والقنيطرة هذه قلعة صغيرة في جنوبيّ المشتّى على مسافة نحو سبعة كيلومترات منهُ لم يبقَ من آثارها سوى اساس جدرانها. وقد زعم البعض انّ القناطر المذكورة في قول حمزة هي القناة الضخمة المدعوّة اليوم بقناطر او قناة فرعون كانت في قديم الزمان تسيل فيها المياه الى مدينة اذرعات في حوران (٢ ولكن ترى ماذا يكون حمل ملوك البادية وامراء غسّان على بناء هذه القناة مع ما كانت عليهِ حوران في زمانهم من التمدّن والفلاح وهي عنهم في غنى للقيام بمثل هذا المشروع (٣. وهذه القناطر لا يراد بها قناطر مدينة الرّصافة (Sergiopolis) حيث استشهد القديس سرجيوس وبها كانت ذخائرهُ وكان بنو غسّان يكرّمون هذا الشهيد اكرامًا جزيلًا فحملتهم عبادتهم الى ترميم قناطر هذه المدينة كما سلّم بذلك الدكتور نولدك

Zur Topographie u. Geschichte...der Hauràngegend مواضا ZDMG,XXIX, 419-444 المجلّة الشرقية الالمانية

١) راجع المقدسي ص ١٧٨ وياقوت الحموي (١: ١٧٤) والمسعوديّ (ص ١٢٩) الخ

٢) قيل ان هذه القناة كانت تنتهي الى مُكَيْس المسمّاة عند الاقدمين غدارة في ناحية عجلون. الّا اننّا نرتأي مع الدكتور شوماخر انّ هذا رأي غير راجح (راجع Das südliche Basan, 1897, p. 127, 184)

٣) راجع نولدك Die Ghassânischen Fürsten, p. 50

اما القسطل فموقعهُ في وسط البلاد التي نحن بصددها لا تبعد عن المشتّى الّا بمسافة بضعة كيلومترات في شماليهِ الغربي. واسمهُ الاعجميّ (Castellum, Καστέλλιον) يدلُّ على انهُ كان مركزًا قديمًا لجنود الرومان ويرجّح انّ الغسّانيين تزلوهُ بعدهم وسموا بترميمهِ

وقال ايضًا حمزة يذكر الحارث بن جبلة ما حرفهُ: « وكان مسكنهُ بالبلقاء وبنى بها الحفير ومصنعهُ بين دَمْجان وقصر أُبَير ومعان ». فحفير هذه مذكورة في تاريخ المسعودي (٣ : ٣٨٩) كمنزل حلَّ بهِ بنو غسان لم نجد لها ذكرًا في غيرها من المؤرّخين. والمرجّح انّ موقعها كان على ضفّة نهر الحفير « وهو نهر بالاردنّ بالشام من منازل بني القَيْن بن جَسْر (١ ». فمن المقرّر انّ بني القَيْن او بَلْقَين كانوا يسكنون في جنوبيّ بلاد غسّان اعني بلاد موآب وادوم القديمة. يتعيّن ذلك من اسماء البلدان المذكورة في حدود بلادهم

ودَمْجان السابق ذكرها في حمزة على مسافة اربع ساعات من معان في شمالي شرقيها وفيها اليوم آثار ابنية شبيهة بالمشتى. وقال ياقوت (١ : ١٠٩): « انّ قصر ابير في بلاد بني القَيْن ». ولعلّ هذا القصر هو الذي يدعى اليوم بقصر بير على مسافة يومين من معان من جهة الشرق. وقد اجتاز الدكتور موسيل بقرب هذه الأخربة فرآها من الطريق واخبرنا انّها تشبه اخربة المشتّى الّا انّها اصغر منها

فلنرجع الآن الى المشتّى فنقول لا شكَّ في انّ بني جفنة سكنوا البلقاء. وبيّنّا في ما سبق انّ كثيرًا من الابنية التي عزاها لهم حمزة الاصفهاني في القرن العاشر لا يزال منها آثار الى اليوم. أفليس يحقّ لنا ان ننسب اليهم بناء المشتّى

أجل انّ كُتّاب العرب لم يذكروا المشتى بين ابنية الغسّانيين بل ولم يعرفوا اسم هذا البناء وهو اسمٌ حديث ولكن ليس سكوتهم هذا بحجّة كافية فانّهُ قد فاتهم ايضًا ذكر ابنية كثيرة شبيهة ببناء المشتى على مسافات مختلفة من هذا القصر وقف عليها الدكتور موسيل في سياحتهِ الاخيرة (راجع كتابهُ في صدر هذا العدد والصورتين في الصفحة ٦٣٢) ومما وجدهُ من هذا القبيل « قصر طوبة » وهو بناء عجيب على مرحلة يوم ونصف من القطرانة في شرقيّها مرقعهُ في وادي القَدَف عند مصبّ وادي حُوَرَ. وهذا الاثر القديم اشبهُ شيء

---

١) ياقوت (٤ : ٢٩٦)

بالمشتى فترى لهُ سوراً خارجياً وابراجاً على شكل نصف حلقةٍ وحجراً متقنةً ونقوشاً جميلةً . الّا انَّ سورهُ قد تهدّم لانَّ الآجر الذي اتُخذ لبنائهِ من صنف دون آجرّ المشتى (ص٦٣٢)

ومن ذلك ايضاً « قُصَير عمرة » في شرقيّ المشتى بميلٍ الى الشمال على مسافة يوم. ونصف منهُ . وبناؤهُ كبناء المشتى بيد انَّهُ لا سور لهُ وهو مبنيّ بنحيت الحجارة

٤

فترى ممّا سبق انَّ هندسة كلّ هذه الابنية متشابهة كأنّها بُنيت على مقتضى رسم واحد انّما اختلافها في كبرها ومواد بنائها . فينتج من ذلك انّها من آثار شعب واحد ودولة واحدة

ولعلّ معترضاً يعترض علينا بقولهِ انَّ في هذه الابنية رسوماً من شكل الهندسة البيزنطية

فنجيب انَّ هذا الاعتراض لا يدحض مقالنا لانَّ عرب الشام لم يكن لهم هندسة خاصّة بهم فلمّا ارادوا بناء قصورهم دعوا لرسمها وتشييدها مهندسين من الروم لما كان بينهم وبين ملوك القسطنطينية من العلائق الوديّة وهم ولاتهم في بادية الشام . وقد بُنيت هذه القصور في بلاد خالية خاوية لا تصلح للروم وللفرس ولكنّها تليق بملوك غسّان . كيف لا وعندها الارياف التي كانوا يرعون فيها مواشيهم وتؤيّد هذه القضيّة بالملاحظة الآتية التي من شأنها ان تزيدها ترجيحاً وان لم تبتّ الامر بتّاً تامّاً

قال الدكتور بروتوف الذي عنهُ نقلنا الاسطر السابقة : « انَّ النقوش الغريبة المرسومة على وجه قصر المشتى التي نسبها البعض الى النجم قد وجدناها على حُبٍّ كبير (زير) نقشها عليهِ اهل الجولان في قرية خصفين . ولا يضرّ ان يكون الحُبّ حديث الصُّنع فانَّ رسم مثل هذا النقش يدلُّ على انَّ سكّان تلك البلاد قد اعتادوا هذه الاشكال تناقلوها بينهم عن اجدادهم في ارض طالما سكنها بنو غسّان . وبين هذا النقش ونقش آخر ورد في علوّ بعض ابنية السويداء شبهٌ ظاهر (١

وقال ايضاً الدكتور المذكور : « وقد وجدنا ايضاً في قلعة عمّان حنيّةً ومدخل مشجه الى

---

١) السويداء قرية من اعمال حوران (راجع ياقوت ٣ : ١٩٧) ومراصد الاطلاع ٢ : ٧٠) فيها بقايا ابنية للغسّانيين على ما روى حمزة وابو الفداء وابن خلدون

الجنوب فهذه الحنيّة كثيرة الشبه بحنيّة المشتّى (١ ». قلنا وعمّان من المحالّ التي يُروى عن بني جفنة أنّهم سكنوها

وزاد ايضاً الدكتور برونوف شهادة ثالثة على ما سبق ألا وهو التشابهُ الموجود بين بناء المشتى واثر آخر استولى عليه الخراب يدعى الخربة البيضاء موقعهُ عند واحات رُحْبة في دائرة التلول في جنوبي شرقي دمشق. ولهذا البناء كما للمشتى سور مربّع وابراج مستديرة الشكل ونقوش تمثل قضبان الكرمة وحيوانات شتّى وانّما صناعتها من حيث الاتقان والدقّة دون نقوش المشتى. قال دي ڤوگويه (٢ : « وكلّ هذه النقوش مع ما فيها من الدلائل على الهندسة الروميّة لا تخلو من خواصّ انفرد بها اهل الشرق » هذا ولا يُنكر ان رُحْبة المذكورة كانت في دائرة ملك بني غسّان وليست هي بعيدةً عن موضع يُعرف بالبرج فيه الى اليوم كتابة يونانية امر بنقشها (٣ « البطريقُ الشريف والامير المُنذِر (Αλαμούνδαρος) » وكانت سابقًا فوق عمارة بناها هذا الملك. فلم يشكّ المسيو دي ڤوگويه ان ينسب بناء خربة البيضاء الى احدى القبائل التي قدمت من جنوبي جزيرة العرب ولعلّهُ لاحد ملوك غسان الذين تولوا الامر في هذه الجهات

ولقائل ان يقول ولِمَ لا تنسب الى الرومان المشتى والبنايات الشبيهة بها ؟ أجيب ان للرومان في البلقاء آثارًا عديدة من قلاع ومحالّ حصينة لجندهم ولا نرى بين هندسة هذه الآثار وهندسة البنايات التي وصفناها من شبهٍ فانّ اسوار المآثر الرومانية مرتفعة نحو ضعف ارتفاع هذه الاخيرة وترى ابراجها مربّعة الشكل لا مستديرة كالمشتى كانّ غاية الرومان في تشييدها المدافعة كما يليق بالقلاع الحريزة بخلاف الابنية التي نحن بصددها فانّها جامعة بين هندسة القصور والقلاع معًا

وعلاوة على ذلك انّ مواقع هذه الآثار الرومانية كلّها على احد جانبي درب الحجّ لصيانة الثغور من غزوات البدوان فلا سبب اذًا للرومان ان يبنوا ابنية في وسط البادية على مسافة نيف ويمين من الحدود كما يظهر ذلك من بنايتي قصر طوبة وقُصَير عمرة. فاذا لم

---

١) راجع *Mittheilungen u. Nachr. des D. P. V.*, 1895, p. 87.

٢) راجع كتابهُ المَدْعُوّ *Syrie Centrale, Architecture civile et religieuse*, p. 70.

٣) راجع Waddington, n° 2562

تصحّ نسبة هذين القصرين للرومان فلا سبيل الى القول بان المشتى من عملهم لما بينهما وبينهُ من شبه الهندسة . فهذه هي الاسباب التي حملتنا على عَزْو المشتى لبني غسّان بناءً بامرهم مهندسون روميُّون كبقيّة عمائر البلقاء . هذا رأينا والله اعلم

زينب (الزبّاء) ملكة تدمر

للاب سبستيان رتزقال اليسوعي

(تابع لما سبق)

فلم يجاوب شابور على أُطلبة أذينة بل تجبَّر وتكبَّر وامر بحرق الرسالة ورمي الهدايا في الفرات

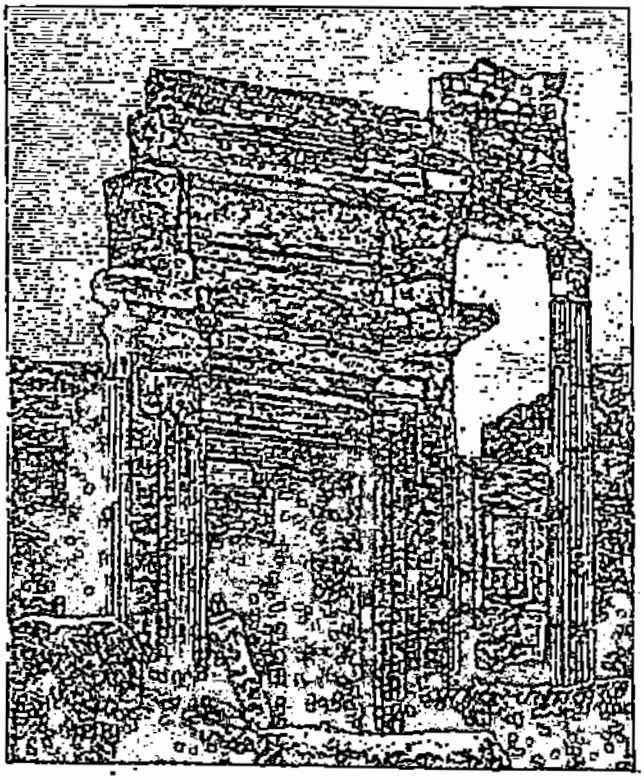

مدخل قصر أذينة وزينب (عن صورة شمسيّة)

فلمّا رجع رُسُل أذينة الى تدمر واعلموهُ ما كان من امرهم فار فارُهُ وتلظّى غيظاً ثمّ صمّم على الانتقام من شابور وتأهّب لمحاربة الفرس وانتدب لذلك قبائل العرب فلبّوا